# كلمة في افتتاح المهرجان الوطني الثاني للادب الفلسطيني

أيها الاخوة الاعزاء، أيها المنتشرون المنكمشون مع نبضات القلب: من بيروت الى مقر الامم المتحدة .. ومن القدس الى بيروت

يبدو لي ان عقودا من الزمن تفصل بين لقائنا السحيق آنذاك في المؤتمر الاول وبين هذا اللقاء الثاني.

مياه كثيرة جرت في الاردن ثم استقرت في انابيب الري الحديثة في مستوطنات اليهود.

ودماء كثيرة، دماءنا، تفورت تراب الكرة الارضية بحثا عن اجابة ولو مقتضبة على السؤال المتكرر في اسئلة : كيف؟ لماذا؟ اين ومتى؟ حتى لقد اصبح دمنا المهدور عادة مألوفة من عادات الشعوب وتقليدا عاديا من تقاليد الهيئات والمؤسسات. من في هذا العالم من القطب الى القطب، لم يتسل بدمنا؟ ومن لم يتذوق هذا الدم بترفع ذواقة الخمر في معاصر الكروم العريقة؟ مع ذلك ورغم ذلك ينعقد هذا المؤتمر الثاني والذي سيعقبه حتما ثالث ورابع وهلمجرا، حتى نهاية الوجود غير المرجوة. هل هو التحدي؟ ولم لا؟ فليكن تحديا ما دمنا في زمن اذا فقدت فيه القدرة على التحدي فانك فاقد عقلك وروحك لا محالة.

في الحرب العالمية الثانية كثر اللغط عن السلاح السرى الاميركي وسرعان ما تحقق ان ذلك السلاح لم يكن سوى القنبلة الذرية بحالها وكثر اللغط عن العنبر الالماني رقم ١١ .. ويقينا ان الالمان امتلكوا هم الاخرون سلاحا سريا فتاكا.

وعندنا .. ماذا عندنا في ظل الانظمة القبلية الحاكمة؟

اذكر اننا اطفال حرب ١٩٤٨ - كنا نتوشوش بفخر ومهابة عن مدفعين فظيعين عند الجيش اللبناني، احدهما يسمى "سفير جهنم" والثاني يسمى "الغضب" وكنا نكرر بفخر واعتزاز ما نسمعه من الاباء والاخوال والاعمام من ان هذين المدفعين كفيلان بمحق اليهود محقا عن وجه البسيطة، وسرعان ما خاب الفال واصبح الجيش اللبناني على السنة الاباء، والاعمام والاخوال وعلى السنتنا نحن الاطفال "جيش علبة العطارة".

وفي حرب ١٩٦٧ كنا -شباب النكسة- نمتلىء حماسا مكررا "وفق تصريحات المشير عبد الحكيم عامر المكررة عن "اكبر قوة ضاربة في الشرق الاوسط وثاني او ثالث الاساطيل في البحر المتوسط"..

ونعود الى حرب تشرين ١٩٧٣ انذاك أصبحنا القوة السادسة في العالم على ذمة صحافة الانظمة .. واليوم، على ضوء الحرائق في بيروت الغربية، لا يبدو لنا في الافق سوى جريدة اسمها "تشرين" واكوام من الخردة تحت جزمات الغزاة الصهاينة.

كان هناك من يقول ان سلاح العرب السري هو "التضامن العربي" واذا كل الامر، بارادة الانظمة، لا يتعدى الخطأ المطبعي. واذا كل ما لدينا، لم يعد على ايدى الانظمة سوى "التطامن العربي"..

مع ذلك ورغم ذلك ينعقد هذا المؤتمر .. وانه التحدي عينه، لاننا

امل للحياة عينها. والصك الشرعي باهليتنا للحياة هو ذلك الموقع بالدم يوميا بدءاً من بيروت وانتشارا مع نبضات القلب التي تغطي خريطة العالم باسره.

هل اقول ان الكلمة الشريفة الملتحمة بالموقف الشريف وبالارادة المستحيلة هي اذن سلاحنا السرى؟ اجل اقول ذلك، وبكل ايجابية القول وليس كرد فعل يائس على واقع ميئوس منه. اجل: الكلمة - الفعل، الفكرة - الطاقة، الموقف-التغيير.

وهناك ايضا اصدقاؤنا الثوار في العالم والعناصر النظيفة في الشعوب العربية الشقيقة والتي اصابها ما اصاب ابناء العقيد اوريليانو بوينديا في رواية "غابرييل غارسيا ماركيز" العظيمة (مئة عام من العزلة)، فقد اعلن ذلك العقيد المسكين في سورة غضب: "سوف اسلح يوما اولادي كي انتهي من تلك المزابل الامريكية".. وكان يعني بذلك احتكار شركة الموز الامريكية الشمالية فلم يكن من سفاحي شركة الموز الامريكية الشمالية الا ان راحوا يصطادون اولاد العقيد واحدا تلو الاخر وهم عزل من السلاح، غير دارين بما يجري من حولهم .. لم ينج سوى واحد من ابناء العقيد، هو "اوريليانو العاشق". وهذا شان شعبنا. انه اوريليانو العاشق الذى نجا من عنعنات الانظمة العربية وشنشنات الزعامات العربية والاذاعات القحطانية وما الى ذلك من الزبل الامبريالي -الصهيوني- الرجعي العربي، زبل الاكاذيب والخيانة والتآمر وكل ما يجعل المرء عرضة للتقيؤ لمجرد رؤية صور الملوك العبيد والرؤساء العبيد على شاشات التلفزيون العربية الاشد عبودية والملونة بال - سيكام.

ما زالت امامي مئة وثلاث وثلاثون صفحة حتى افرغ من رواية ماركيز العظيمة منذ صفحتها الاولى، ولا ادري بمصير أوريليانو

العاشق.

أما شعبنا العاشق فانني أرى مصيره الرائع بقدر ما أرى يدي هذه. وما هذا اليقين الا من اليقين المتجسد يوميا وفي كل ساعة وفي كل لحظة، تحت هدير القصف الجوي والبري والبحري، يقين البطولة الاسطورية والفداء غير المحدود والحب الذي خلق بجدارة، واحدة من اروع قصص الحب عبر التاريخ كله.

هذا، قطعا، هو سر انعقاد المؤتمر الثاني.. وهذا ما سنحتفل به ذات يوم قريب -اقرب مما نتصور- هنا في القدس العربية، عاصمة للانسان الفلسطيني وللمبدع الفلسطيني وللحضارة الفلسطينية..

«الطليعة»

# أنت تطلق النار وأنا ابكي

رواية عاموس كينان "الطريق الى عين حارود" اصبحت بين ايدي القراء العرب بعدما ترجمها انطوان شلحت وراجعها وقدم لها سميح القاسم (دار الكلمة -بيروت). "ألقَبَس" قرأت الرواية، والحقيقة ان من الصعب جدا اضافة اى شيء الى تقديم الشاعر الفلسطيني الكبير والذي نثبته في ما يلي:

من حق عاموس كينان عليّ ان اقدمه للقارىء العربي، ومن واجبي ازاء القارىء العربي ان اهيىء له قراءة عاموس كينان بتمهيد صريح، فلا بد من استباق التأويل، بوضع النقاط على الحروف، كما يقولون.

منذ حوالي عشرين سنة ونحن نجد عاموس كينان الى جانبنا في معاركنا مع السلطات الصهيونية من اجل حقنا في التعبير الحر، وفي الحياة الكريمة على تراب آبائنا واجدادنا. وكان من الطبيعي ان تتحول علاقات العمل المشترك في القضايا السياسية والثقافية الى صداقات عادية متكافئة لا سيما حين تحول عاموس كينان من نصير لضحايا الرقابة على الادب إلى ضحية لهذه الرقابة. فحين نشر

مسرحيته "الاصدقاء يتحدثون عن يسوع" داهمه مقص الرقيب الاسرائيلي، واكثر من ذلك فقد حاولوا تشويه مضمون مسرحيته لاثارة الطوائف المسيحية الفلسطينية ضده. أنذاك جاء دوري للوقوف الى جانبه. وكتبت في مجلة "الجديد" مقالا ضافيا لنصرة عاموس كينان على دهاء رقابته من جهة، وعلى سهولة استثارة مشاعرنا الدينية من الجهة الاخرى. بيد ان صداقتنا لم تكن عادية. ذلك ان عاموس كينان مفعم بالتناقضات، بحيث يبدو احيانا اشد اعداء الصهيونية مراسا، ويعود من ثم ليبدو وكأنه حامي حمى الصهيونية. فتسأله حائرا هل انت صهيوني يا عاموس؟ ويرد بهدوء يكاد يكون خبيثا: انا ابن هذه البلاد ولا تهمني التسميات.

أما اختيار هذه الرواية "في الطريق الى عين حارود" (هي عين جالود او عين جالوت عندنا) للترجمة الى اللغة العربية فليس منوطا بدعاوى الصداقة والعداء، انه موقف موضوعي من العمل بحد ذاته، فالى جانب الاهمية الفنية للرواية هناك اهمية بالغة الخطورة للمضمون الذي بنيت الرواية به وفيه ولأجله. وفي صعود "نجم" الرابي الفاشي مئير كهانا، وفي اتساع رقعة السرطان العنصري بين خلايا بلادنا المنكوبة، نجد المصداقية الكافية لناقوس الخطر الذي يقرعه عاموس كينان في روايته هذه فلسنا هنا امام قصة من قصص الخيال العلمي. نحن نتعامل الان مع ضوء احمر قان يستمد مبرره الحاسم من حمرة الدم المسفوك في بلادنا، وفي منطقتنا، على ايدي "المارينز العبريين"، بحارة اكبر حاملة طائرات اميركية "تدعى اسرائيل" على حد تعبير مناحيم بيغن (هل تذكرونه)؟

وتشكل هذه الرواية تسجيلا دقيقا لكابوس مرعب يقض مضجع كل انسان في بلادنا لم تهدر انسانيته بعد. انها رواية الفوضى

والانقلابات العسكرية المتعاقبة التي تنتظرها اسرائيل، حيث تجري عمليات التصفية الجسدية والغاء الصحافة (على اليابانيين ان يهتموا بشأن اليابان) وذبح ما يتم ذبحه من المواطنين العرب، وطرد من تكتب له السلامة الى مكة، وسقوط الانسان في الانسان، والانحطاط الى درك الخنازير وما شابه ذلك من العذابات والهلاك والفساد والتلاشي. وفي غمرة الفوضى والتسيب فان "جمهورية فايمر" جديدة تنشأ في عين حارود الحرة، وتتحول هذه البقعة السليمة من الجسد المتعفن الى حلم الناس الاحرار الذين يتكبدون وعثاء اللجوء ومخاطر الدفاع عن كيانهم الانساني المجرد، من أجل بلوغ رأس النبع -الحلم-الامل-الملاذ الاخير.

إذن فعاموس كينان ماض الان "في الطريق الى عين حارود" ولا يسعنا الا ان نتمنى له رحلة موفقة، بيد ان الكاتب لا يمضي في الطريق وحيدا، ثمة شخصيات اخرى ترافقه في رحلة الهلاك والحلم: محمود، ورافي، وليئورة، والمؤسسة العسكرية، وباخ، والحمير المسموح لها بالتجول لانها من سلالة حمير سيدنا ابراهيم، وطيور مهاجرة، ومصفحات، وطائرات هليكوبتر، وهلمجرا.

وعليه فمن الطبيعي ان تجري حوارات، وان تعلن مواقف، وان يتم تبادل الاراء ووجهات النظر في هذه المسألة او تلك. وهنا اجدني مضطرا للتدخل طارحا جملة من الملاحظات سلبا وايجابا. وابدأ بالملاحظات السلبية حتى يكون الايجاب مسكا للختام.

١- يصر الكاتب على ان لليهود حقا تاريخيا في فلسطين، ويتجسد هذا الاصرار في التعامل المفرط مع مسائل الاركيولوجيا اليهودية، وفي الحوار غير المتكافىء مع محمود، وفي الاستطراد

المقحم والاسهاب في ذكر الاسماء والوقائع اليهودية الى جانب تلميحات طفيفة (لتبرئة الذمة) بالنسبة للاخرين الذين عاشوا في هذه البلاد، او عبروا فيها. على سبيل المثال، فان الكنيس الذي عثر عليه بطل الرواية في كهف مجهول يبدو وكأنه انتظر بطله هذا طيلة ١٨٠٠ عام. غير ان هذا البطل اليهودي يتجاهل حقيقة حد بسيطة وهي ان فلسطين لم تنتظر اهلها العرب سوى ٣٦ عاما. ذلك انهم عاشوا فيها منذ ظهر اسلافهم اليبوسيون والكنعانيون قبل ظهور اليهود واليهودية والتوراة بألاف الاعوام. ان بدعة الحق التاريخي اليهودي هي بدعة صهيونية لا مبرر لها على اي مستوى من مستويات الفهم الانساني السليم. وما هذا الحق التاريخي المزعوم سوى وسيلة غيبية لتمرير مؤامرة امبريالية، استهدفت تمزيق الامة العربية والوطن العربي، وها نحن نلمس على جلودنا أثار هذه المؤامرة.

٢- لم يكن الكاتب عادلا في حواره السياسي مع محمود. فهو يزعم ان محمود يضع المعادلة السياسية على هذا النحو: "يوجد فقط اما واما"، اما العرب واما اليهود.

ولنلاحظ اجابة رافي: "لا يوجد فقط اما واما". وخلاصة الامر بالتبسيط النثري المباشر هي كالتالي: الفلسطينيون يرفضون التعايش، اما اليهود فيقبلون به. وهذا تزوير مفضوح لحقائق السياسة البسيطة والمبذولة على الاصعدة كافة. فان التزمت الصهيوني وشهوة التوسع والاحتلال والعنصرية، فكرا وممارسة، من الجانب الاسرائيلي. هي العقبات التي تعترض سبيل اي حل سلمي يضمن لاصحاب الوطن الشرعيين حقهم التاريخي في العودة الى وطنهم الشرعي، واقامة دولتهم المستقلة بقيادة منظمتهم الشرعية، منظمة التحرير الفلسطينية.

٣- في مواجهة نوع من توبيخ الضمير فان الكتاب العبريين الليبراليين يحاولون التملص من الحقيقة الدامغة (شعبهم يضطهد شعبا آخر) بتوزيع المسؤولية على الطرفين (القاتل والضحية). ويقع عاموس كينان في المطب نفسه: "وسألت راشد" (المقصود هو المرحوم الشاعر راشد حسين الذي ربطته بعاموس كينان علاقة صداقة طويلة ومعروفة) "لماذا لا يذرف دمعة على ولدي الذي مات وليس على ولده فقط ولم يعرف كيف يجيب".

كان راشد سيجيب. واية اجابة! ولعله من الظلم الفادح ان يوجه الاسرائيليون سؤالا الى راشد حسين بالذات لانه اليوم لم يعد قادرا على الاجابة. القتلى لا يتكلمون. وراشد حسين هو شهيد اخر من شهداء الغربة والتشرد تحت وطأة الكابوس الصهيوني. ولا عدالة اطلاقا في هذا الحوار غير المتكافىء بين القاتل والضحية.

٤- اذا جاز التعميم فان الاسرائيليين يكرهون سوريا والسوريين كرها مرضيا. ولهذا المقت منابع دينية. حيث يعتقد المتدينون اليهود بأن "من الشمال تأتي الضائقة". والسوريون لا يرفضون الاحتلال الاسرائيلي فحسب، ولا يشكلون حجر عثرة في طريق الشهوات الصهيونية فحسب، انهم فوق ذلك موجودون في الشمال، و"من الشمال تأتي الضائقة". وفي هذه الرواية، فان السوريين يذبحون اسيرا حتى يستنطقوا الاخرين، وهم يغتصبون أسراهم. انهم القساة المتوحشون وغلاظ القلوب. وبقدر ما هو واضح في المعطيات، حتى الامس القريب، فان هذه الصورة الشائهة ليست سوى قناع لاخفاء الحقد الصهيوني البهيمي على السوريين. وما كنت اريد لكاتب خبير مثل عاموس كينان ان يسقط مثل هذه السقطة، التي لا تتنافى مع الواقع السياسي فحسب، بل تتنافى اصلا مع روح الادب، اذا كنا نعتبر

الادب طموحا انسانيا صادقا الى تغيير الوجود البشري، وتطويره، وتثويره نحو الافضل والارقى والاجمل. ولتأت الضائقة آنذاك من حيث شاءت.

٥- من مميزات الذهنية الاسرائيلية الشائعة ذلك الايمان المطلق بتفوق العنصر العسكري الاسرائيلي، جيشا، وافرادا، وقيادة، وسلاحا، وتخطيطا، وتنفيذا.

بعبارة اخرى، التفوق الكلي الشامل والناجز، ومن هنا فان الجندي الاسرائيلي هو محارب اسبارطي بمنطق الماضي، وهو سوبر مان بالمنطق المعاصر على الطريقة الاميركية. وعسكريو هذه الرواية من السائق الى الجنرال هم من الطراز السوبرماني، فهم دائما رابطو الجأش وعلى اهبة الاستعداد، ومبدعون في الارتجال، ومتميزون على كل المستويات. وعداء عاموس كينان الواضح للعسكرية الاسرائيلية لا يستطيع التعتيم في هذه الرواية على اعجابه الشديد بالعسكري الاسرائيلي.

فالعسكري الاسرائيلي يتشبث بعنفوانه، وعجرفته حتى حين يكون في مأزق رهيب، علما بأن الوقائع التي يعرفها بعضنا تناقض هذه الصورة وتدحض هذا الزعم. ولاننا مناهضون للعنصرية فاننا نرى في العسكري الاسرائيلي رجلا عاديا يخاف ويجرؤ، يتفاءل ويتشاءم، يتقدم ويتقاعس، وفق الحالات التي تكتنفه وتفرض نفسها عليه. فحتى في اعقاب النصر الاسرائيلي اثر عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧، عرفنا قادة اسرائيليين تقيأوا وسلحوا في بزهم العسكرية حين تعرضوا لمواقف خطيرة او حرجة، في اثناء الحرب. والعالم كله يعرف حالات الانهيار العصبي والتفكير بالانتحار التي انتابت بعض

كبار القادة الاسرائيليين في اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣. وما كنت اتوقع من كاتب بحجم عاموس كينان ان تجرفه روح السوبرمانية العسكرية الاسرائيلية، مع احترامي الشديد لعدائه الواضح للمؤسسة العسكرية ذاتها.

أما مسك الختام، فملاحظات هي قطعا في صالح هذا العمل الروائي الفريد في هذه المرحلة الفريدة.

١- في عدة مواقع من الرواية نجد تعبيرا صادقا عن التأزّم، واعادة الحساب والخيبة والاحباط ازاء ما كابده الشعب الفلسطيني من تشرد ودمار وعذاب على يد الصهيونية.

٢- يؤكد الكاتب على ضرورة التعاون العربي -اليهودي في سبيل الخلاص من كابوس العسكرية الاسرائيلية، وهو لا يفعل ذلك من خلال شخصية محمود فحسب، بل يعلنه بالنص المباشر "يتعين علي ان اجد عربيا.. كل خطتي للهرب مبنية على العرب".

٣- يتحقق في هذه الرواية مبدأ مهم من مبادىء فهم الفاشية فهما انسانيا ومعالجتها من الموقع العلمي الصحيح، الموقع الاممي، فالعنصري اليهودي الذي يحقر الانسان العربي بتعبير "عربوش" يتوصل بالضرورة وبالمنطق التاريخي المجرب والمعروف والمؤكد الى ان يحقر الانسان اليهودي المعارض لافكاره بتعبير "يهودون" الامر الذي يقيم الدليل على صحة التحليل الطبقي للفاشية، ويدحض الزعم بان النظريات والمقولات القومية هي فوق الطبقات، وتتجاوز مفاهيم الصراع الطبقي.

٤- تسجل هذه الرواية، وبطريقة فنية لامعة، عملية الفرز والاستقطاب الجارية في البنية الاسرائيلية. فحين تحاول

العسكرية الصهيونية الناطقة بلسان البريغادير ان تتستر بدعاوي الاجماع القومي والسلام الاجتماعي: "نطلق النار ونبكي" فان القوى الديمقراطية الهائمة على وجهها "في الطريق الى عين حارود" تتصدى لهذا المنطق المزور وعلى الفور: "انت تطلق النار وأنا أبكي".

ليس هذا كل ما في الامر. هناك مسائل اخرى يثيرها هذا العمل الروائي. الا اننا غير ملزمين الان، وهنا، باستكمال الحوار. وعلى عكس ما تراه القصيدة التي يستشهد بها عاموس كينان في مستهل روايته، فانني أرى ان الطريق الى عين حارود طويلة، وطويلة جدا ولا يبقى لنا، اذن، ما نضيفه في تلك الطريق الطويلة والشاقة حقا.

«القبس» ١٩٨٧/٩/٢٦